الوعظ الدينى فى خدمة المجتمع

لحضرة صاحب السعادة عبد السلام الشاذلى باشا

سبق لى أن دعوت على صفحات هذه المجلة أئمة المساجد وخطباءها والقائمين بالإرشاد الدينى إلى الخروج من دائرة الوعظ التقليدى الذى لا يزيد على أنه سرد لأركان الإسلام ، و إحصاء للفروض والسنن ، ووعد بجزيل الثواب ، وتحذير من شديد العقاب .

واذا كان حقا أن فى مصر اليوم طائفة من الأئمة والخطباء قد نشطت الى مهمتها آخذة بأساليب الوعظ الحديثة ، فالحق أيضا أن المنابر وحلقات الدرس قد تعاقبت عليها الأجيال دون أن تظفر من فريق من الوعاظ بغير ذلك الحظ ، حظ السرد والإحصاء ، والوعد والوعيد ، فى عبارات غامضة لا تعمل فى النفوس عملها المرجو ، وفى جمل متشابهة تصلح لكل جيل وكل قبيل ، وفى تعميم لا يجلو للناس حقائق الدين ولا يكشف لهم محاسن الدنيا ، بل هو ينصبّ على وجوب الإعراض عن الدنيا ونبذها وتحقيرها والتزهيد فى نعيمها ، كأن الله لم يخلقها لنا ولم يخلقنا لها ، ولم يوصنا ألا ننسى نصيبنا منها ، بل كأن هذه الدنيا ليست هى سبيلنا إلى الآخرة .

الدنيا ليست فى نظر الدين هينة ولا حقيرة ولا جديرة أن تنبذ و يعرض عنها ، وما ينبغى لأحد أن يغلو فى تصغيرها و يصرف قلوب الناس عنها وعن طلب مناعمها وطيباتها وعن العمل لنشر السعادة والرخاء والسلام فى أرجائها وتوجيه أصحابها إلى أمثل الطرق لإرضاء أنفسهم و إرضاء الله .

ومن ثم فالواعظ النافع هو الذى يكون له فضل فى هذا التوجيه ، وهو الذى يحسن استخدام ما وعى من نصائح الدين فى إصلاح شؤون الدنيا ، بحيث لا ينسى الناس واجباتهم فى كلتا الناحيتين .

و إذا كان عمل الواعظ كما بيّنا ، دينيا ودنيويا معا ، فقد وجب عليه أن يعمل على إصلاح " التدين " أو بعبارة أوسع وأوضح ، تصحيح فهم الناس لتعاليم الدين و إرشادهم إلى أمثل الطرق لتطبيقها ، وتنقية هذا التدين من الأوهام والخزعبلات التى علقت به ، والعودة إلى الصواب فى القضايا التى أسىء فهمها فأسىء تطبيقها .

نريد من الواعظ أن يفهم الناس أن اهتمامهم بإسعاد دنياهم هو الوسيلة التى يسعدون بها آخرتهم ، إذ لا غنى لطالب الخير فى الآجلة عن طلب الخير فى العاجلة . ومن الخطأ أن يحسب بعضهم أن الكدح والدأب من أجل العيش الهنىء والحياة السعيدة و إحراز المجد والقوة

والسيطرة والعظمة قد يتنافى مع التوكل على الله والإيمان برحمته وبأنه يبسط الرزق لمن يشاء بغير حساب . نعم من الخطأ أن يتمكن هذا الوهم من روع الناس ، فيقول ابن زريق الشاعر :

والسعى فى الرزق ، والأرزاق قد قسمت ، بغى ، ألا إن بغى المرء يصرعه

فذلك أسوأ ما يدبر به الإنسان أمر حياته ، وأبعد مايكون عن فهم معنى التوكل على الله ، وأخطر ما يجب أن يحاربه الواعظ الدينى ليجتثه من نفوس الناس .

يجب أن يقول لهم إن التوكل هو العمل والدأب مع الثقة بالله ودوام الاستعانة به . وإلا فلو أن النبى صلى الله عليه وسلم قنع من حسن الإسلام بالتوكل وقعد عن الفتح لما قامت للاسلام قائمة . ولو أن الخليفتين الأولين اكتفيا بالتوكل ولم يعملا للدنيا لما قامت الأمبراطورية العربية التى كأنى بالتاريخ لم يجعل إلا لتدوين عظمتها والتحدث بآثارها ومناقبها .

يجب أن يظهر للمسلمين فساد الفهم الذى فهموه من قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وفساد ما استنبطوه منها من الحكم الشعبية المثبطة للهمم ، المميتة للعزائم ، كقولهم : « الرزق على الله » و « الله يرزق الماجع والناجع والراقد على أذنيه » و « إن نمت عن رزقك فرزقك لاينام عنك » وأن يبين لهم الفارق العظيم بين ما أراده الله وما فهمه المتأخرون . فالناس إن توانوا عن السعى منتظرين من السماء رزقهم فسيطول انتظارهم دون جدوى ، لأن السماء — كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولأن العدل الإلهى يأبى أن يرزق القاعد والكسول كما يرزق الساعى والمجد ، وأنهم إذا جروا على هذه القاعدة ، قاعدة التواكل يسمونه توكلا ، والتفريط يحسبونه إيمانا ، لم يقف حظهم عند ترك الخير والقعود عن طلبه ، بل قعدوا عن اتقاء الشر والعمل لدفعه .

يجب أن يقول لهم : « إن الدين المعاملة » أى أن حسن المعاملة بين الناس هو النتيجة التى تنتهى اليها العبادات . والله لا يرضى من الناس بعبادات لاتؤدى إلى هذه النتيجة ، وأن العمل الصالح فى الدنيا يرفع الكلم الطيب إلى الله ، وفى ذلك يقول أصدق القائلين : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ليكن هذا من أهم مايهتم به الواعظ الدينى ، فيبين للناس دينهم على حقيقته ويفسر لهم الكتاب والسنة تفسيرا صحيحا يحفزهم إلى العمل الصالح الذى يسعدهم فى دنياهم فيسعدون فى آخرتهم ، وأن يوجههم إلى خير الأعمال الصالحة وهى التعاون الإنسانى فى مختلف أشكاله .

ليقل لهم إن الله لم يجعل الصلاة لتكون حركات آلية وترديد آيات وتلاوة أدعية ، وإنما أراد أن يسبقها الوضوء لتنظيف الأطراف نظافة كاملة لا مجرد إجراء الماء عليها ، وأرادها

أن تكون وقوفا يقفه بين يدى خالقه ليقول له فيه إنه مؤمن به ، مصدق لما أنزل عليه ، عامل وفق أوامره، عازم على المضى فى طاعته ، شاكر لنعمته ،نادم على مافرط منه، فيجب أن يكون المصلى صادقا فيما يقول فى صلاته مؤمنا به ، وإلا فإنه يكذب على الله وهو قائم بين يديه والله عالم حقيقة مايخفى وما يعلن .

ليقل لهم إن الإنسان يتجنب ارتكاب الجرائم لأنه مؤمن بوجود قانون العقوبات وبوجود الحاكم الذى ينفذ أحكامه ، فكيف لا يتجنب المحرمات إذا كان مؤمنا بوجود الله وقيام الحساب ؟ إلا أنه لو كان صادق الايمان لكان صادق الصلاة ، ولو كان صادق الصلاة لتجنب المعاصى . وإلا فكيف يطلب الغفران وهو عازم على المعصية ، وكيف يرجو التوبة وهو مصر على الإثم ، وكيف يزعم أمام عالم الغيب والشهادة أنه مؤمن بالحساب والجزاء وهو لا يخشاهما ؟ ولذلك يقول الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويريد الصلاة الصادقة الصادرة عن قلب يفهم معانيها ومايجب أن يترتب على هذه المعانى . أما الصلاة التى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تنتهى بصاحبها إلى الصلاح الحقيق فهى كذب على الله واجتراء على مقامه . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لم تنهه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا " .

وليقل لهم إن الله غنى عن الناس وليس فى حاجة لأن يعبد ، وانما فرض العبادات وجعلها وسيلة الى تحقيق الإصلاح الاجتماعى .

فالصيام ليس عقوبة جوع بالنهار يتبعها عفو بالليل ، وإنما هو الى جانب كونه مهذبا للأخلاق ومرققا للطباع ، تعويد للجسم والنفس على الحرمان طيلة شهر من أشهر السنة اعدادا لها لتحمل الشدائد، حتى اذا جاء زمن يتطلب الحرمان أو الاجتراء أو التوجب اويحتمها تحتيا كزمن الحرب والمجاعة ، كانت النفوس والأجسام مهيأة لها متعودة عليها مستعدة لتحملها . فالذين يصومون بالنهار ويشبعون الجسم طعاما واستمتاعا بالليل انما يضيعون حكمة الصوم ويفوتهم ثوابه ، ولا يفعلون الا أنهم يضنون انفسهم بالجوع والظمأ نهارا فى غير طائل . لأن الصائم الصادق فى صيامه هو الذى يأكل فى رمضان ليتقوت ويعيش لاليشبع ويستمتع .

وليقل لهم إن الصدقة شىء والزكاة شىء آخر . فالزكاة ضريبة ضربها الله على القادر ليعيش منها العائل ، وشطر من مال الغنى جعله حقا للسائل والمحروم ، فلا يتحلل منها المسلم ببعض الصدقات ولا يتحايل الغنى على الفرار منها بصنوف الحيل ، فإن مايجوز على الوالى أو القاضى من المحاولات لا يمكن أن يجوز ولا أن يتطلق على الله .

وليقل لهم إن الله لم يفرض الحج ليكون مجرد سفر إلى الحجاز ورحلة بين المناسك ، وانما فرضه لأغراض انسانية اراد بها استدامة عطف المسلمين على البلد الذى نشأ فيه الأسلام ، وجعل بعض الأغراض الاجتماعية شروطا لصحة الحج بدونها لاتستقيم فريضته ، وقد بين الإمام

الغزالى فى كتابه " إحياء علوم الدين " هذه الأغراض فنص على أنه يجب على معتزم الحج قبل أن يخطو الخطوة الأولى فى طريقه أن يوفى ما عليه من الديون و يرد ما فى ذمته من الأمانات و يصلح ما ارتكب من الأخطاء الضارة بصالح الغير و يستغفر الناس بالعمل قبل أن يستغفر الله بالقول عما أتى من المظالم . و إلا فالحج غير مستوف شروطه ومن ثم فهو غير مقبول .

وليأخذ للناس من كتاب الله وسنة نبيه وآثار السلف الصالح ما يصلح شؤونهم و يرد مجتمعهم إلى الوحدة والتآخى والتعاون على البر والخير ، وله فى ذلك نهج سديد من قول الله تعالى " و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " ومن قوله : " انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون " و ليستخرج ما يرغبهم فى مجالس المصالحات وما يحملهم على التدخل لإحلال السلام فى العائلات و إحكام الصلات بين المتخاصمين .

وليسر فى وعظه وتوجيهه سيرة السابقين الأولين من بناة الاسلام ودعاته ، وليقل لسامعيه قول على بن أبى طالب فى ذم البخل : " عجبت للبخيل يستعجل الفقر بحبس ماله عن نفسه وعن الناس ، فيعيش فى الدنيا عيشة الفقراء ، ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء " وليفسر لهم ما فى هذا القول من حض على البذل فى سبيل تعميم المنشآت الخيرية ومعاضدة الأعمال الاجتماعية ، وليأخذهم بما كان رضى الله عنه يأخذ به الناس من منطق سليم مقنع مؤثر ، حين يقول لهم موجها إياهم إلى الإحسان : " افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئا ، فإن صغيره كبير وقليله كثير " وليبين لهم أن الكثير إنما يتجمع من القليل وأن التجمل من المساهمة فى الخير بالقليل خطأ كبير . وليذكر لهم من آثاره ، كرم الله وجهه ، ذلك القول الجامع الرائع الذى ربط فيه أوثق رباط بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، إذ سمع رجلا من المقربين إليه يقول : " استغفر الله " فانتهره قائلا : " ثكلتك أمك . ليس الاستغفار كلمة تقال و إنما هو أعمال تعمل . الاستغفار هو الندم على ما فات مع العزم على ترك العود إليه ، وأن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس لا تبعة عليك ، وأن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤديها ، وأن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه ، وأن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته لذة المعصية ، وبعد ذلك تقول : " استغفر الله "

وليجعل للأسرة نصيبا موفورا من وعظه ، فأرباب الأسر أحوج ما يكونون الى من يوجههم نحو تعاليم الإسلام الصحيحة فى سياسة البيت وتربية الأولاد وصيانة حقوق الزوجة واكرام المرأة ، والى من يصور لهم بشاعة الطلاق وما ينجم عنه من تفكك الروابط وتشتت القلوب وتوزع العواطف وخراب البيوت ، و إلى من يرسم لهم الحدود التى شرعها الله لتعدد الزوجات وينبههم الى ما فى تجاوز هذه الحدود من آثار مشئومة تقوض دعائم الأسرة وتهدم كيان العائلة ، وليضرب لهم الأمثال مما يجرى حولهم ومن الجنايات التى تقع قريبا منهم بسبب ذلك التعدد .

* * *

تلك أمثلة لما يجب أن يكون عليه الوعظ الدينى فوق المنابر وحلقات الدرس ، ذكرتها لا باعتبار أنها كل ما يحصر فيه الواعظ دروسه ، بل باعتبار أنها نماذج لما ينبغى أن يوجه إليه نشاطه وتفكيره وإرشاده . والقرآن الكريم والسنة الشريفة ، وآثار السلف الصالح ، كل ذلك فياض بالأحكام والعبر والمثلات التى يستطيع الواعظ اللبق أن يحلوها و يبسطها للناس فى عبارات سهلة لا تسمو على مداركهم بل تجعل السامعين يقبلون عليه بجمة قلوبهم متأثرين مهتدين .

والإرشاد الاجتماعى إذا استمد من أوامر الله وآداب الدين كان أقرب الدعايات إلى العقول وأفعلها فى النفوس . فأنت إذا قلت للفلاح المصرى : كن نظيفا كالانجليزى ، قال لك أو قال لنفسه : وأين أنا من الانجليزى الذى سبقنى إلى المدنيـة بأجيال وقرون ؟ أما إذا جئته من ناحية الدين وقلت له كن نظيفا لأن دينـك يأمرك بالنظافة ، ولأن من حسن إيمان المرء أن يكون نظيفا ولأن إسلامك لا يتم إلا بالنظافة وأن الانجليز قد أخذوا قوانين النظافة عن دين المسلمين بعد أن تركها المسلمون ، إذا جئته من هذه الناحية وقلت له ذلك كان لقولك أثر بالغ فى نفسه لا يمكن أن يبلغه نصح آخر .

وبعد فالواعظ الدينى من أنفع عمال الإصلاح الإجتماعى إذا أحسن تسليط أشعة الدين على شؤون الدنيا . والإسلام بلا شك دين الاصلاح والتهذيب والعمران ، فليفهمه الوعاظ ثم فليفهموه للناس .

عبد السلام الشاذلى